المحاضرة الثانية
(قضية الوضوح والغموض في الشعر)

تمهيد:

تعد قضية الوضوح والغموض من القضايا التي ترتبط ارتباطا وثيقا باللفظ والمعنى، ولعلها "لم تكن تشغل النقاد قبل ظهور أبي تمام، فقد كان الشعراء قبل ظهور أبي تمام يسيرون على عمود الشعر العربي، وعلى سنن شعراء الجاهليين، وعندما ظهر أبو تمام أخذ يذيع في الناس شعرا يمثل ظاهرة جديدة هي ظاهرة استخدام ألوان البديع في شعره"[1].

والمراد من وضوح المعنى "أن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد ويكون واضحا إذا جاء عن طريق ألفاظ دقيقة في معناها، ثم ركّب بعضها بجوار بعض تركيبا ترضى عنه قواعد النحو، وألا يطول الفصل بين أركان الجملة بأن ينأى الخبر عن المبتدأ مثلا، أو جواب الشرط عن فعله، وأن يقتصر في استخدام المحسنات البديعية، فإن فقد شرطا من الشروط السابقة خفي المعنى، ولم يتضح المراد بالكلام، واتسمت العبارة بالتعقيد، فوضوح المعنى مقياس من مقاييس جودة الشعر"[2]. ومعنى ذلك أن خلاف ما ذكر في بيان هذه الشروط الواجب توفرها في الأسلوب الشعري يسمه الغموض المرفوض فنيا من قبل النقاد العرب القدامى.

أسباب الغموض في الشعر العربي القديم:

غموض المتكلم:

وهو ما قد يقع في المتكلم بسبب مشكلة في جهازه الصوتي، بحيث تتداخل مخارج الحروف عنده، أو خروج حرف مكان حرف أخر، أو أن يكون المتكلم يعاني من صعوبة نطق بعض الحروف، مما يحدث عنه لبس في فهم المراد منه، أو الفهم عن طريق الخطأ

---

[1]- محمد صايل جمدان وآخران، قضايا النقد القديم، ص 34.
[2]- المرجع نفسه، ص 36.

للمعنى الذي يريده المتكلم. وربما يصل الأمر إلى الغموض التام في فهم المراد من الكلام، وهو غموض غير متعمد عنه.

غموض التركيب النحوي:

قد تكون الألفاظ المستخدمة في عبارة معينة واضحة ولا تحمل الغموض، وقد لا يتعمد الشخص المتحدث الوقوع في الغموض، لكن على الرغم من ذلك تأتي العبارات غامضة بسبب التركيب النحوي، ومثال ذلك قول أبي النوّاس:

أفرّ إليك منك وأين * إليك يفر منك المستجير**

غموض بسبب علامات الكتابة:

هو ما يحدث في علامات الترقيم مثلا، فنظام الكتابة في اللغات يختلف عن النظام الصوتي لهان فالحروف ما هي إلا وسيلة التعبير عن الأصوات، ولا تختلف اللغو العربية عن غيرها من اللغات، ونستطيع هنا أن نستخدم العلامات التي أعدت لقراءة القرآن الكريم مثل علامات الوقف والوصل في قوله تعالى:﴿ألم (1) ذلك الكتاب لا ريب* فيه* هدى للمتقين﴾[1]، هنا ينفتح المجال للتأويل، فهل **لا ريب فيه** تعود على بالمعنى إلى **الكتاب،** أم تعود إلى **هدى للمتقين،** والمعنى بالطبع يختلف بحسب ما تعود عليه الكلمات في الآية الكريمة. إذا المعنى يحتمل الأمرين كذلك.

الغموض البلاغي:

يعتبر الالتفات والتشبيه والاستعارة والمجاز والتورية والكناية وغيرها من الأساليب البلاغية التي تكتنف لغة الشعر، والتي لا غنى للشاعر عنها، وهذه الأساليب تخلق نوعا من تعدد احتمالات المعنى، فضلا عن اتساع دائرة التأويل والتفسير التي تنتج عن الغموض،

[1]- سورة البقرة، الآية 2.

"فالغموض بهذا المعنى يشكل جوهر الشعر، وهي نتيجة أساسية تميز النص الشعري عن غيره وتمنحه الخصوصية الفنية والجمالية"[1].

والغموض في العمل الشعر عنصر يمثل أهمية كبيرة، فهو عنصر لا غنى عنه فيه، منذ اللحظة الأولى التي تنبت في قلب المبدع وعقله حتى وصول هذا العمل إلى المتلقي عملية شديدة التعقيد في كل مرحلة، فالتداخل الذي يحدث في العملية الإبداعية يجعل عملية تحديد المعنى بصورة تامة أمرا غير واقع الحدوث.

موقف النقاد العرب القدامى من قضية الغموض في الشعر:

تناول عدد كبير من النقاد قضية الغموض في الشعر، فاعتبرها بعضهم سمة في أشعار المحدثين، الأمر الذي أدى إلى حيرة الكثير من النقاد في معانيها، ولجأ بعضهم إلى رفض المحدث، واعترف بعضهم بصعوبة أشعار المحدثين.

موقف حازم القرطاجني من قضية الغموض:

ينطلق حازم القرطاجني من مصطلح الدلالة في دراسته لقضية الغموض، حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام: دلالة إيضاح ودلالة إبهام ودلالة إيضاح وإبهام معا، ويرى أن غموض المعاني منها ما يعود إلى المعاني نفسها ن ومنها ما يتعلق بالمعاني والألفاظ معا، ويفصل حازم القول حول كل وجه من الوجوه السابق على النحو التالي:

- غموض بسبب المعنى نفسه.
- غموض بسبب الألفاظ والعبارات.

ومع أن حازما منحاز في الجملة إلى جانب الوضوح[2]، فإن الغموض لديه مقبول إذا كان المبدع يقصد الإغماض خاصة في الكنايات والألغاز وغير ذلك من أنماط الغموض التي

---

[1] - كمال أبوديب، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1987، ص 231.

[2] - ينظر إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت لبنان، ط4، 1973، ص 55.

لا يتوقع أن يخلو منها فن الشعر، أما إذا كان المبدع بقصد التصريح فإن هذه الأسباب جميعها يجب تجنبها، "لأن المعنى إذا ورد غامضا في كلام قد يقصد به الإبانة فإن ذلك يوعر سبيله ويزيله غن الاعتدال والاستواء مع القصد"[1].

ومنه كشف حازم مثل هذه الأحوال عن الحيل التي يستطيع الشاعر أن يخفف بها درجة الغموض في شعره، أو يزيلها فإذا كان المعنى نفسه دقيقا وجب على الشاعر أن يؤديه بأبسط عبارة أو يقرن المعنى بما يناسبه من الأمور التوضيحية، وانتصارا منه للتوضيح ينص باعتماد القصص المشهورة حتى لا تكتسي الإشارات بالغموض، وينصح الشاعر أن يبتعد عن العبارات المتعلقة بنصائح أهل المهن، أو العبارات الدالة على المعاني العلمية.[2]

موقف الآمدي من قضية الغموض:

كان الآمدي من أوائل النقاد الذين تناولوها من خلال رؤية نقدية حاولت النفاذ إلى جوهر القضية، وهذا عندما تدخل في الصراع الدائر بين البحتري وأنصاره من جهة، وبين أبي تمام وأنصاره من جهة أخرى، "استطاع معالجة الصراع معالجة أسلوبية اجتماعية، وذلك عندما ذهب إلى أن الفرق ما بين البحتري وأبي تمام يكمن في اختلاف مذهبيهما، فالبحتري يتميز أسلوبه بـــ (صحة العبارة وقرب المأتى، وانكشاف المعنى، أما أبو تمام فقد قام مذهبه على (غموض المعنى ودقته، وكثرة ما يورد مما يحتاج إلى الاستنباط والشرح والاستخراج.[3]

ومما أشار إليه الآمدي حول قضية الغموض، استفسار حاجبا عبد الله بن طاهر لأبي تمام عندما استمعا إلى قصيدته التي مطلعها:

وهنّ عوادي يوسف وصواحبه * فعزما فقدما أدرك السؤال طالبه**

---

[1] - ينظر حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 172.

[2] - المرجع نفسه، 175.

[3] - عبد العليم محمد إسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر العربي، دار الفكر العربي للطباعة وللنشر، القاهرة ط1، 2011، ص 11.

فقالا له بعد أن عرض القصيدة على الممدوح فأجازه: (لماذا تقول ما لا يفهم؟)، فأجابهما: (ولماذا لا تفهمان ما يقال؟)[1]، وفي السياق ذاته يذهب الآمدي في تعليقه على بيت لأبي تمام قال فيه:

يوم أفاض جوىّ أغاض تعزيا * خاض الهوى بحري حجاه المزبد**

يقول الآمدي: "فجعل اليوم أفض جوىّ والجوىّ أغاض تعازيا والتعزي موصولا به (خاض الهوى) إلى آخر البيت، وهذه غاية ما يكون من التعقيد والاستكراه، مع أن (أفاض) و(أغاض) و(خاض) ألفاظ أوقعها من غير موضعها وأفعال غير لائقة بفاعلها وإن كانت مستعارة"[2]، وربما استعمال الآمدي التعقيد للدلالة على الغموض، فيتعامل مع المصطلحين باعتبارهما ظاهرة واحدة، يقول عن (التعقيد/ الغموض) الناشئ من طريقة النظم التي اتبعها الشاعر[3]. "وأنا أذكر الجزء الرذل من ألفاظه ... والمستنكر المتعقد من نسجه ونظمه، على ما رأيت المتأخرين يتذاكرونه وينعونه عليه ويعيبونه[4]، ومن أنواع الغموض التي ذكرها الآمدي ذلك النوع الذي يتصل بشدة تعلق الكلم بعضه ببعض، فقد علق على بيت لأبي تمام بقوله:

يا يوم شرد يوم لهوي لهوه * بصبابتي وأذل عزّ تجلدي**

"فهذه الألفاظ إلى قواه (بصبابتي) كأنها سلسة من شدة تعليق بعضها ببعض، وقد كان أيضا استغنى عن ذكر (اليوم) في قوله (يوم لهوي، لأن التشريد إنما وقع بأمره، فلو قال: (يا يوم شرد لهوي) لكان أصح في المعنى من قوله (يا يوم شرد يوم لهوي) وأقرب في اللفظ.

موقف علي عبد العزيز الجرجاني من قضية الغموض:

---

[1] - إيليا الحاوي، شرح ديوان أبي تمام، دار المعارف، القاهرة، 89.
[2] - المرجع نفسه، ص 12.
[3] - عبد العليم محمد إسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر العربي، ص 12.
[4] -المرجع نفسه، ص 12.

يعد علي عبد العزيز الجرجاني من النقاد الذين أثاروا قضية الغموض في الشعر، فقد تناول في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" أسلوب المتنبي ما بين المدافع عنه واللائم له، يقول: "وقلت: احتملنا له ما قدمناه على ما فيه من فنون المعايب، وأصناف القبائح، كيف يحتمل له اللفظ المعقد والترتيب المتعسف لغير معنىً بديع يفي شرفه وغرابته بالتعب في استخراجه، وتقوم فائدة الانتفاع بإزاء التأذي من سماعه كقوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه * بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه**

ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة التعقيد المفرط فيشك أنّ وراءها كنزا من الحكمة، وفساد النظم في رأي القاضي هو الذي أوجد هذا النوع من التعقيد/الغموض، وذلك لفصل المتنبي بين المتعلقات قبل تمامها، فقد فصل خبر الابتداء (بأن تسعدا) قبل تمامه، فكان ينبغي أن يقول: (وفاؤكما بأن تسعدا) فقد فصل بينهما بقوله: (كالربع أشجاه طاسمه).[1]

فالجرجاني يرى أن التعقيد/ الغموض عيبا، يقول مدافعا عن المتنبي، ومعترفا ببعض عيوبه: "وقد تفقدت ما أنكره أصحابك من الديوان ... فوجدتها أصنافا، منها أصناف نسبت إلى اللحن والإعراب ... وأعيب ما فيها من عيبه من باب التعقيد والعويص واستهلاك وغموض المراد"[2].

ويبدو أن علي عبد العزيز الجرجاني كان موفقا في تناوله لقضية التعقيد/الغموض، حيث استطاع أن يفرق، بين (التعقيد/الغموض) الناتج عن قوة النظم، وبين إشكالات الناقد من حيث موقفه الشخصي. ما جعله يتبنى موقف يذهب إلى أن الغموض سمة شعرية تعلو أشعار المعاني، "وليس في الأرض بيت من أبيات الشعر القديم أو المحدث إلا معناه غامض

[1] - عبد العليم محمد إسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر العربي، ص 12.
[2] - المرجع نفسه، ص13.

مستتر، ولولا ذلك لم تكن كغيرها من الشعر ولم تفرد فيها الكتب المصنفة وتشغل باستخراجها الأفكار الفارغة"[1].

وفي الختام يمكن القول أن ظاهرة الغموض قديمة رافقت الشعر العربي من القدم، ولازمته في مواضع كثيرة، وقد عالج الغموض كثير من الدارسين العرب القدامى أمثال عبد القاهر الجرجاني والجاحظ وابن الأثير والسجلماسي، وغيرهم إذ اعتبروا كل نص شعري يعتد بالغموض نصا معقد الأسلوب ومتعدد الدلالة، يبعث على الإثارة ويدعو للجدل.

[1]- عبد العليم محمد إسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر العربي، ص 15.